المحاضرة الثالثة: جهود العرب في الدرس اللسانيّ

مقدمة

في البداية ينبغي علينا ان نقر بأن العرب لم يكن لهم علم لغوي قائم بذاته قبل مجيء الإسلام،بل كانت لهم لغة يتبارون فيها في أشعارهم ويتنافسون فيها في مجالسهم، وقد مدحهم الله بهذا فقال:" وإن يقولوا تسمع لقولهم"

غير أنهم في مرحلة زمنية معينة-بعد اختلاطهم بالأمم الأخرى- وجدوا أنفسهم مضطرين للحفاظ على لغتهم من اللحن ،فأسسوا لذلك العديد من الملاحظات وكتبوا في لك العديد من المؤلفات وفي كل المستويات

وعلى هذا الأساس سنقوم بعرض اهم جهود العرب للحفاظ على لغتهم في كل المستويات

أ-المستوى الصوتي: وهو المستوى الأول في أي دراسة لغوية حديثة ،ويمكننا أن نبرز اهم جهود العرب في الامور الآتية

-هناك رواية تقول إن اول اهتمام للعرب بالدرس الصوتي كان بسبب لحن الأعرابي في القرآن الكريم في قوله تعالى" إن الله بريء من المشركين ورسوله " بكسر لام رسوله بدلاً من ضمها. فلحن الأعرابي كان لحناً صوتياً مس حركة اللام، وهي صوت، وهو ماجر خطأ في الدلالة، هذا الأمر كان هو الحافز لأبي الأسود الدؤلي (67هـ) على أن يضع نقط الإعراب ، حيث قال لكاتبه(إذا رأيتني قد فتحت فمي بحرف فأنقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممت فمي، فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن اتبعت شيئاً من ذلك غنة (تنويناً) فاجعل النقطة نقطتين) [1].

إن صنيع أبي الأسود الدؤلي يعد اول دراسة صوتية جادة،فملاحظته أثر الشفتين في تحديد نوعية الصوت وتسميته الحركات القصيرة بالفتحة والضمة والكسرة هو مايسمى في الدرس اللغوي الحديث بالصوائت،

كما ان هناك عضوي فيزيولوجي يعتمده الدرس الصوتي الحديث وهو الشفتان.

واكثر من هذا ،فقد تم التوسع في دراسة أصوات العربية وصفاتها ومخارجها وحتى في درجة تجانسها ،وارتبط كل جزء من ذلك بعلم قائم بذاته ويمكننا اختصارهذا الأمر في العلوم التالية

المعاجم:حيث يعد معجم العين أول معجم في اللغة العربية، ينسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175) وهو من أهم الدراسات الصوتية حيث يقول محققه مايلي: " في هذه

---

[1] أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب ، ص 77.

المقدمة بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدة من عصر الخليل.1"[2]

ومن أهم الأمور الصوتية التي تحدث عنها مخارج الحروف وصفاتها من همس وجهر وشدة ورخاوة ونحوها، كما تكلم عن القوانين الصوتية من قلب أو حذف أو إعلال أو إبدال أو إدغام. وعدداً من المسائل الصوتية واللهجية و القراءات .

كما يعد ترتيبه لمعجمه على أساس صوتي الفكرة الرائدة في هذا المجال حيث رتب الحروف على حسب مخارجها وهي على النحو التالي: ع ح هـ خ غ – ق ك – ج ش ض – ص س ز – ط د ت – ظ ذ ث – ر ل ن – ف ب م – و ا ي ء .
كما يعد معجم الجمهرة لابن دريد من المعاجم التي تعرضت للجانب الصوتي ؛إذ تكلم في عن الأصوات التي تأتلف و التي لا تأتلف و أشار إلى تباعد الحروف و تقاربها و آثره في النطق.رغم ما لقيه مصنفه من انتقاد ؛كونه صورة مصغرة لكتاب العين
علماء النحو: اعتنى النحاة بالصوتيات كونها مدخلاً لدراسة الظواهر الصرفية ف من إدغام وإعلال وإبدال، ويعد كتاب سيبويه(ت 180 هـ) المصدر الأول لعلم الأصوات العربي، حيث تعرض للأصوات مبينا مخارجها و صفاتها .في نهاية كتابه،ومرتبًا الحروف العربية ترتيبًا مخالفًا لترتيب الخليل، و محددا صفة كلِّ حرفٍ ومبينا مخرجه، وموضحا مجراه بدقة عظيمة، وقد يضعه بعضهم بعد كتاب العين في المرتبة، كما عرض للإدغام وغيره من الأمور الصوتية، وكذلك فعل النحاة من بعده حين عالجوا موضوع الإدغام.

كما عالج المبرد في كتابه "المقتضب" الإدغام في الجزء الأول وقدم له بدراسة للأصوات ومخارجها.
كما تكلم الزجاج في كتابه "الجمل" عن الإدغام، ومهّد لحديثه ببعض الأفكار الصوتية
أما الزمخشري فقد ختم كتابه "المفصّل" بالإدغام وقدّم بين يديه دراسة للأصوات .
كما تعد الشافية لابن الحاجب (ت 646هـ من المصادر الصرفية التي عالجت مباحث صوتية متعددة كالإعلال و الإبدال و القلب و الإدغام، وغيرها،
علماء التجويد
لقد اعتنى علماء التجويد بالصوتيات عناية قد تفوق عناية غيرهم ؛ فلا يخلو كتاب لهم من كلام عن مخارج الحروف وطريقة نطقها، مما أدى إلى ظهور مراتب التجويد ، وظهور مصطلحات صوتية مهمة كالإشمام والروم والاختلاس والإمالة والتخفيف والتفخيم . ومثال ذلك كتاب "النشر في القراءات العشر "لابن الجزريّ

---

[2] ـ الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط 2إيران، 1409 ج1، ص 10

علماء الإعجاز

لقد اعتنى المؤلفون في إعجاز القرآن بمخارج الحروف، وعرفوا صلة هذه المخارج بتلاؤم الحروف وتنافرها، ومن أشهر هؤلاء أبو الحسن الرماني (386 هـ) الذي تحدث عن فواصل القرآن، ورأى أنها على وجهين أحدهما على الحروف المتجانسة والآخر على الحروف المتقاربة، كما تحدث عن التلاؤم ورأى أنه نقيض التنافر،معللا إياه بالعديد من الأمثلة

كما تكلم الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" عن العديد من المباحث الصوتية، ليبين وجه إعجازها

الأدباء والبلاغيون

يعد الجاحظ(255 هـ)، أشهرهم على الإطلاق؛حيث نجد في كتابه (البيان والتبيين) معالجة علمية دقيقة للأصوات التي تدخلها اللثغة، وتحدث عن أوصاف هذا المرض ومراتبه الاجتماعية، كما أدرك صلة الأمراض اللغوية بالمجتمع، كما عرف اختلاف اللهجات، ودرس التبدلات الصوتية التي تطرأ للغة العربية عند الأعاجم .وغيرها

كما عرض ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة لقضايا صوتية متعددة

ويعد كتاب ابن جني"سر صناعة الإعراب" أجود دراسة في هذا المجال، حيث تطرق فيه بالتفصيل للعديد من القضايا الصوتية ومنها:

1 – بيان صفاتها العامة وتقسيمها على وفق اعتبارات مختلفة.

2 – عدد حروف المعجم وترتيبها ووصف مخارجها.

3 – ما يُعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيير.

واما جهود المحدثين العرب: المحدثين فنذكر منهم

- إبراهيم أنيس في كتابيه "دلالة الألفاظ في اللهجات العربية"و "الأصوات اللغوية.

- تمام حسان في كتابه " اللغة بين المعيارية والوصفية" وكتاب "مناهج البحث في اللغة" وكتاب " اللغة العربية معناها و مبناها"

- كمال بشرفي كتابه "دراسات في علم اللغة" وكتاب " علم الأصوات"

المستوى المعجمي

لقد اهتم العرب بالالفاظ أيما اهتمام وألفو في ذلك العديد من المعاجم التي تنوعت من حيث

الشكل والمضمون
والمعجمات العربية قسمان:

1 – معجمات الألفاظ: وتترتب مادتها على أساس الشكل أو اللفظ، ومنها

- معجم "العين" للخليل بن احمد الفراهيدي والذي اتبع منهجه كل من الأزهريّ صاحب معجم "تهذيب اللغة"، والقالي صاحب معجم "البارع"، وابن سيده صاحب معجم "المحكم والمحيط الأعظم".

ب الجوهريّ في معجمه "الصحاح" ، وتبعه في منهجه ابن منظور في معجمه "لسان العرب" والفيروز آبادي في معجمه "القاموس المحيط" والزبيديّ في معجمه "تاج العروس". حيث تم ترتيب الكلمات على وفق حرفها الأخير

- أبو إسحاق بن إبراهيم الفارابيّ صاحب معجم "ديوان العرب" والذي تبعه في منهجه كل من ابن القوطية في معجمه "الأفعال"، وابن القطاع في معجمه "الأفعال" أيضًا. حيث كان أساس الترتيب هو الأبنية

2 – معجمات المعاني: وتترتب مادتها على أساس المعنى بحيث تجتمع ألفاظ موضوعٍ مُعيّن في بابٍ بعينه، حيث كان العرب قبل ظهور معجم "العين" يضمون ما يجمعونه من ألسنة العرب في رسائل في موضوعات معينة، كـ(الإبل) و(الخيل) و(السلاح)... وسواها، ومن أضخم معجمات المعاني وأوفاها معجم (المخصص) لابن سيده.

المستوى التركيبي

تبرز رواية نسبة نشأة النحو العربيّ إلى أبي الأسود الدوليّ بتكليفٍ من الإمام علي(عليه السلام) الذي وضع بعض أبواب النحو في رقعةٍ، وحدد فيها أقسام الكلام من اسمٍ، وفعلٍ، وحرفٍ، ثم دفعها إلى أبي الأسود، الذي نحا ذلك النحو فسمي نحوًا، ثم وضع التنقيط ليضبط أواخر الكلمات في القرآن الكريم، وتمم عمل أبي الأسود (نصر بن عاصم) الذي أضاف نقط الإعجام كي يميز الحروف بعضها من بعض، وبذلك أُحيط القرآن بسياج قوي يحميه من اللحن.

واللحن معناه" عيب لساني يقوم على تحريف الكلام عن قواعد الصرف و النحو، كما يقوم على مخالفة النطق الفصيح و اللفظ السليم. من أبرز حالاته: استبدال كلمة بأخرى، نحو: (افتحوا سيوفكم)، بدل (سلّوا سيوفكم)، و العجز عن لفظ الحروف كتحويل (الراء) إلى (ياء)، نحو: شيّف أي شرّف أو العجز عن لفظ الكلمات، أو عن تهجيتها، أو الخطأ في

تحريك بعض الحروف بغير حركتها الأصلية، أو الخطأ في إلزام قواعد الصرف والنحو 3)"

ثم برز النحو علمًا على أيدي تلامذة أبي الأسود الدوليّ، وعلى رأسهم القرَّاء ومنهم:عيسى بن عمر، وأبو عمر بن العلاء، وعبد الله بن إسحق، والخليل بن أحمد الفراهيديّ... وهؤلاء أول مَن روى عنهم سيبويه في (الكتاب).

كما ظهرت مدرسة البصرة: ويتزعما أبو الأسود وتلامذته ومدرسة الكوفةومؤسسها أبو جعفر الرؤاسيّ –ومن أعلامها الكسائيّ، والفراء

اما من درس بنية الجملة وما بعدها وفصلها تفصيلا يرقى لتحدي كل ما اتى به الدرس اللغوي الحديث فهوعبد القاهر الجرجاني واضع نظرية النظم والذي يمكننا

[3]. 497/1 : - المعجم المفصل في علوم العربية " الألسنيات "